قصة : رؤوف بيكەرد
ترجمة : عبدالستار كاظم

أسطورة «دربصد مراد»

كما حدثني به ابي، انه كثيرا ما قوافل قريتنا لم ترجع، خاصة في شهر كانون الثاني الذي يكثر فيه تساقط الثلوج ويكون الجمد في اوجه، كان يقول دائما: لقد خسرنا الكثير من الرجال والمجربين، تلك الحياة القاسية قد رمتنا في هذه الزاوية المنعزلة، وجعلت من الجبال والوديان قرينا لنا، فصارت مدعاة لبؤسنا وشقائنا وكأن الطبيعة قد وظفت نفسها لمثل تلك الايام، فما أن تعود القافلة من المدينة الى هنا حتى يتغير الجو في منتصف الطريق فيغدو صرصرا يسد الثلج السبيل.

وفي تلك السهول الواسعة والجبال الوعرة كانوا يهيمون، لا يسمع استغاثتهم احد، وبعد ايام عندما يتحسن الجو نبدأ بمسح الجبال فكنا نعثر على بعض الجثث خارج المنخفضات ومن لا نعثر عليه نستخرجه في فصل الربيع من برك الثلج المذابة.

ولقد سمع ابي في حداثته عن جده ايضا انه كما يقال كان في قريتنا رجل حصيف جدا ولكي يكسر شوكة طلسم عدم العودة تلك صحب معه عددا من رجال المنطقة الاشداء وذهبوا الى المدينة وعند العودة كانوا يحملون معهم متاعا جيدا وانتعلوا لحذية سميكة وغطوا اجسادهم باللباد الصوفي السميك. وعندما بلغوا منتصف الطريق شعروا بتبدل الجو، فيعلمون انها الريح المشؤومة فيشدون العزم على البقاء فيدخلون كهفا يقضون فيه عدة ايام فينفذ طعامهم ويشتد عليهم البرد. وعندما يطلعون من الكهف يجدون ان طريق نجاتهم قد سد فأينما يضعون اقدامهم تبتلعهم الثلوج فيختنقون، فيضطرون للعودة الى باطن الكهف حتى تجمد الواحد منهم تلو الآخر.

بعد تلك المأساة منعت القوافل منذ ذلك الحين وتناقلت الاجيال قصة هذا الطريق جيلا بعد جيل.

وعندما بلغنا مبلغ الشباب كان هذا الكابوس المخيف يجثم على صدورنا جميعا، سر كبير كان يرتسم في عيون كل شاب، ففي الليالي عندما كنا نجتمع عند بعضنا البعض، بعد اللعب والمرح يخيم علينا صمت فنتسمر في اماكننا وتنغلق مفاتيح السنتنا، فننظر الى بعضنا كأنما يسأل احدنا الآخر: ترى هل نحن اسرى؟ إننا محشورون في محيط هذه القرية المنزوية ونقضي حياة مليئة بالمحن! كثيرا ما تزعجنا قلة المؤن مما يبكي اطفالنا، لقد كانت الاحداث قريبة منا للدرجة التي لم يجرؤ أحد ان يعود الى قيادة قافلة ويكسر عقدة الخوف من الطريق اسطورة الموت وعدم العودة صارت كآفة ذات مخالب وأنياب حادة تسري في عروقنا وأن كنا نسمع كثيرا انه على مقربة منا هناك عدة مناطق اخرى حدث لها مثل تلك الاحداث ولكنها الآن صارت عندهم قديمة ولم تبق لديهم ظاهرة طريق كهذه.

* * *

عندما وصل مراد قريتنا، كان الفصل ربيعا نديا وقد انقشع غبار الشتاء القاسي لسنتنا تلك وكنا في معمعة حياة جديدة ولكن برقع جبل كلاوقوت الثلجي كان يخطف الابصار.

كان مراد رجلا ربع القامة مكتملا وكما كان يقول هو: انه قدم من بلاد بعيدة (هندران) ولقد رأى الكثير من عجائب البلدان والناس، قطع جبالا منيعة كثيرة وقد . رب الكثير من الطرق الموحشة المخيفة وجاء بشكل خاص الى هنا لكي يطلع على احوال السكان المعاشية ويتفهم اسرار المنطقة الناس عندنا حينما يرون

ضيفا او عابر سبيل يحسبونه قد سقط عليهم من السماء، من ذا الذي يأتي الى مكان منعزل كهذا لكي يحمل هموم المواطنين؟ وعندما اعلمهم بأنه انتوى البقاء بين ظهرانيهم فرحوا بذلك كثيرا. كنا نجتمع حوله في الليالي وهو يحدثنا عن حلو الحياة ومرها التي مرت به وبالدنيا الواسعة التي من حولنا، يطرق باب كل حديث منا بهدوء يسأل عن اعمالنا واحوالنا المعاشية ولم يبق في المنطقة احد لم يعرف اسم مراد، وقد الفه الشباب بشكل خاص، فكانوا يأتون من كل حدب وصوب ليستمعوا اليه ويتعلموا منه، صار الرجل المرموق الذي يستشيره الكبار والصغار في المنطقة.

في نهاية خريف تلك السنة لم تبق عائلة من عوائل قريتنا لم يكن قد خصص لها يوما لحراثة ارضها ولم يبذل ما في وسعه في هذا المضمار. كان يدور على البيوت ويفرض عليها يوما معينا يقوم هو بالحراثة عوضا عنها. صحيح ان الناس كانوا غير راغبين في ذلك ولكن لما لمراد من حب في نفوسهم ونزولا عند ارادته كانوا عاجزين عن الامتناع من منا كان يعتبر نفسه اكثر خبرة بالارض والزراعة لم يكن يعرف بعضا مما يعرفه مراد، كان يتحدث عن خصوبة الارض وبركة الغلال باقتضاب ولكن عندما كان يمسك بمحراثه الذي تجره الثيران بشق الارض تحسب انه قد ورث الحراثة من آبائه، كأي فلاح متمرس ماهر. بساطة عيشه ومهارته في العمل كانت تطمئننا بأننا نعيش مع واحد منا ولا نشعر بغرابة افعاله وأقواله. ولشدة ما وثقنا به وأنقدنا اليه كنا ننفذ اي عمل يطلبه منا دون تردد مهما كان العمل صعبا حتى حل ذلك اليوم استدعى فيه كل شباب القرية، كان الوقت بداية كانون الثاني وبعد ان انتهى من حديثه وكنا كمن على رؤوسهم الطير ذهب كل واحد الى البيت مذهولا كأنما ضرب بمطرقة على راسه يقضي الليل البارد اخماسا بأسداس مفكرا، وما ان لاح شعاع الشمس ينشر دفاه في الصباح الباكر على المنطقة حتى كانوا جميعا خلف مراد متوجهين الى المدينة. قافلة جديدة لسفرة امدها سبعة ايام بلياليها، نقطع (درب الصد ما رد) كرّة اخرى.

* * *

كانوا متقاطرين يتبع بعضهم بعضا في حركتهم كانوا كأمواج بحر متلاطم. السحب المنخفضة الساكنة تزداد كثافة مع مرور الوقت، مراد كان في المقدمة يحث الخطى مخلفا وراءه رهبة الطريق وخشية السحب الكالحة، يلتفت بين حين وآخر اليهم وبثقة يقول: لقد أمضيت عمرا مديدا في تسيير القوافل، لا حاجة الى العجلة والتسرع، المهم هو انك تتعرف في البداية على الطريق ثم تقتفيه. ولكن الشاب كاردو لم يقتنع، كان كسمكة خرجت لتوها من الماء يتلبط في كل الاتجاهات لم يبق في ذهنه خوف من البرد ولا ذكريات القصص التي قصها عليه ابوه.

الرغبة في السبق قد استحوذت عليه، يقول في نفسه: «انني شاب قوي، لقد جعلوا من هذا الطريق الثلجي الوعر فروة اسد، لن يستطيع أتعابي، يجب ان ازف بشرى عودتنا قبل ان تهطل الامطار وتتجمد البرك». تعمد ان يقطع نفسه عن القافلة، لفّ جانبا من كوفيته حول رقبته، جعل من الوحدة رفيقا له، وضع اقدامه في السهل الواسع سالكا الطريق الى القرية، ناداه مراد:

(لازال الطريق بعيدا، الذهاب وحيدا عمل شيطاني، انك لاتزال حدثا ولست بذي خبرة في المتاهات). حث كاردو خطأه وأسرع.

وأختفى في منعطف عن الانظار. توقف وشدّ حزامه وسحب جوربه الى الاعلى، الريح ما فتئت تزداد برودة والثلج كان قد غطّى جبل «كلاوقوت» من قبل، جعل من قمته نبراسا وسار نحو الهضبة، لكنه شعر بضيق خطواته في المنعطف الثاني، وضع يده على خصره، لفحت الريح الباردة ما بين صدره وقميصه، وخزت وجهه الحار كالوبر، وقف تحت شجرة بطم، نظر الى آثار الحبيبات الطيفية التي مازالت باقية على ساقها. تلفت كمن يريد ان يعرف مقدار ما قطعه، مد بصره الى الطريق المستدق ولكن لم يمتد بصره لبعد كبير اذ ان الضباب صار كغابة كثيفة احتضنت المنطقة. قطع السحاب البيض كانت تقترب من بعضها اكثر فأكثر وتتماسك، وعندما واصل السير ملأ النسيم صدره ورأسه برذاذ الثلج. السحب المنخفضة ترسو فوق رأسه، شدّ من عزمه وهمّ خطاه، تشنج وجهه، احكم رباط حذائه، اصلح وضع خنجره، مع كل خطوة كانت كتل الثلج بجسمه، وفي غمرة سيره واجه طريقا ذا اتجاهين، توقف ومسح وجهه بيده، كان احد

الطريقين يتجه يمينا والآخر شمالا، لم يدر ايهما يختار، قال في نفسه: (الحيرة في مفترق الطرق شيء مؤلم، لا يمكن لأحد ان يجد سبيله بالقرعة). سار في الاتجاه الايمن عدة خطوات ثم توقف، الشك اعاده القهقري، سار في الاتجاه الايسر، لم يمش كثيرا حتى عاد ثانية، وقف في مفترق الطريقين، نفض عن جسمه الثلج، دعك يديه، الخوف من الضياع خيم على صدره، بدأ يفكر: (لا يمكن ايجاد الطريق بالقرعة، انها هوة وفي اعقابها اللاعودة، والوقوف هو موت مستمر. و قعُ اقدام أخرجه من افكاره.

وضع يده على خنجره وتأهب، كان يخشى من ان يكون القادم وحشا ولما دنا منه كان درويشا هزيلا اشعث، القى التحية ووقف، سأله كاردو: «ايها العم الدرويش اريد ان أصل الى الربع المرتفع فأي الطريقين اسلك؟» مسح الدرويش يده الوسخة بلحيته الشمطاء وأجابه: «أتبع الطريق الايسر ولا تحد عنه وعندما تصل الى مفترق طريقين أتبع الطريق الايسر ايضا.». أرشادات الدرويش العجوز اوصلته الى واد مخيف، عدا الرهبة لم يشعر فيما حوله بشيء آخر. توقف. كتل الثلج كانت تسقط بهدوء تحيط عنق الجبل بسوار من صمت.

يقال عند الشدائد يلجأ المرء الى افكار غريبة جدا. لم يكن يؤمن بها في الاحوال الاعتيادية، كذلك الغريق الذي يتشبث بقشة، الا يدري انها لا تنقذه! اذن لماذا يمد اليها يده؟ هذا سر من اسرار دخائل المرء لازالت غامضة. كاردو وهو يفكر ويدير عينيه فيما حوله قال في نفسه: «عندما كنت طفلا كانت أمي تقول: مع كل قطعة ثلج ملك موكل بها أيمكن ان يكون الموكل بالثلج يأتي لنجدتي! كما اني اتذكر قصة ابن الصياد، فلئن كانت أمي تريد بذاك خداعي فأن هذه قد مهدت لي سبيلا تجربة، فعندما اجد نفسي منقطعا تماما احمل على ظهري حجرا ثقيلا ادور به». دار حول جهاته الاربع. ضاعت عليه معالم الطريق، اراد ان يقفل راجعا، صوت آخر جلب انتباهه، سرت في جسمه رعدة فرح، ما احلى صحبة انسان في يوم كهذا! من مثل تائه يشعر بهجوم مبتلى ضل السبيل؟

عندما اقترب منه كان ذا طاقية عريض المنكبين يحمل كشكولا رماديا على كتفه، سأله كاردو عن الطريق وحدثه عن الدرويش أجابه وهو يهز رأسه: «ان هذا الدرويش اللعين قد ضل المئات من امثالك في الوهاد والسهوب، السذاجة وحسن النية في يوم كهذا، تولد الحيرة». طلب الى كاردو ان يتبعه، اوصله الى بداية الطريق وقال له مطمئنا.

ـ ان الطريق بعد ذلك جيد، لم يبق لك الا القليل لتصل الربع، عندما تصل الى مفترق طرق اتجه نحو اليمين، ثم تجد الطريق منبسطا ولا يتفرع بعد ذلك.

عندما افترقا اسرع «كاردو» خطاه كان يخشى ان يدركه الليل، ولكن الطريق لم يسعفه فمهما اوسع الخطى كانت وعورة الطريق تضيقها له. تسربلت الاشجار بالثلج، كأن الصخور والثغرات من السفح الى القمة قد سويت ببرقع ابيض عدا الطريق المستدق فقد كانت تبدو فيه بعض السمرة احيانا. وصل الى مفترق طرق، واسعده صحة الوصف فسلك الطريق الايمن وانحرف الى جانب منه قائلا لنفسه: المشي وحده علاج للسقوط والرخاوة). اراد ان يستمر في تخيلاته وأفكاره، ولكن لم يمض طويل وقت حتى فقد أثر الطريق،صار كأنه جسم قطع عنه الرأس، وعيناه صارتا كطير طرد من وكره، دار في كل الجهات، وقف، اخذ يلوم نفسه ويلعن الدرويش وذا الطاقية، صار الغضب حصانا جامحا وحمله، صار يضرب الثلج والصخور المحيطة به بقدمه، كان يحدث نفسه، ضاقت انفاسه وتعرق جسده، اراد ان يعود، ماذا سيكسب من العودة! واذا ما واصل السير؟ ان ذاك هو الافضل تقدم خطوة الى الامام، فقد توازنه وانزلق، الصخور المدببة الاطراف أطلت برؤوسها وجعلت من جسده لحما مرضوضا، أنشب أصابعه في الثلج، اراد أن يثبّت نفسه ولكنه كان ينزلق كالسمكة، تدحرج على الصخور والاحراش، حتى صدت جسمه المتكورة شجرة، رغم ان جراحه وآلامه قد انهكته ولكن على اية حال استطاع ان ينهض بصعوبة، لم يدر اين هو ومن أين يبدأ الطريق، الوهن والتعب قد أثرا فيه. أيقن انه لا يستطيع ان يهتدي الى الطريق، مسح بيده الدماء عن وجهه وصدره الرياح الباردة والثلج كانا في تزايد، دفع رأسه ونظر الى السحب وكأنه يقول لها: (المرء ان سقط تتكاثر عليه الغربان، وأنت اليوم هو يومك، افعل ما طاب لك).

حمل نفسه على اعتلاء صخرة، الغربان كانت تحوم حوله وتنعق كأنها تطلب ان يسرع بالموت لكي تنعم بلحمه، قال لنفسه: (ان من يتباهى بقوة شبابه هـذا مصيره، لئن لم انقـطع عن القافلة، لم الق ما الاقي، لقد صدق من قال في التأني السلامة وفي العجلة الندامة).

انتبه الى صوت، قال في نفسه:

يبدو ان وحوش هذا الطريق تعرف انني لم ازل حيا بعد، أي بلاء اكثر من هذا تريد ان يلحق بي؟ ايمكن ان أكون منبوذ هذه الارض كي اتلقى الصفعات من كل من هبَّ ودب!).

طأطأ رأسه ولم يشأ ان يستمع الى نصيحة اخرى، ولكن مواجهة الموت في هذا المحيط المرعب رؤية انسان قد تفرح!

عندما وصل امام الصخرة، سرت بسمة فرح على شفتي كاردو، فتح جفنيه المغمضتين ونظر اليه نظرة أمل، نسي آلامه للحظات قال له: (كيف جئت لنجدتي؟ لم يبق الا القليل من الوقت لأفقد الامل في الحياة). رد عليه مراد: (الم اقل لك، التمرد لا يوصلك الى الربع، هذا الاسلوب العتيق الذي اتبعته انت هـو الذي اودى بآبائك وأجدادك من قبل، قد علمت انك ستكابد هذا ولهذا تبعتك من طريق آخر. فرد عليه كاردو قـائلا: (من هـذا تملمت ان التفرد فيه الكثير من الانزلاق والسقوط، هذه آخـر تجربة في حياتي انا). أخذ مراد بيده وأنزله من الصخرة فقال له كاردو: (أن طاقتي على السير ضئيلة جدا، لا استطيع ان أسير في هذا الدرب الوعر). رفعه مراد قليـلا، امسك بيـده وأنزله من الجانب الآخر، فصارا في المنحدر، كان الدرب بلا عوائق، شعر كاردو بالارتياح مد يده الى جرح من صدره كان الدم قد تخثر عليه، فقال له مراد. كثيرون هم الذين ماتوا في هذا الطريق أنك ذو حظ، لا تمضي طويل وقت حتى تشفى جراحك وتعود لك قواك السابقة.

كان الثلج يشتد كلما مر الوقت، الضباب كاد ان يقطع عليهما الطريق، مراد كان وكأنه في عهد الشباب، يخطو ويرسم بخطواته معالم الطريق على الثلج، ولم يستطع (كاردو) اللحاق به رغم ما يبذله من جهد فكان يتبع آثار خطوات مراد.

عندما تناولت اقدامهم السهل، سرى الاطمئنان الى نفس كاردو فتنفس الصعداء، القى نظرة على السهل الواسع مسك مراد يده وقال له: (تجربتك هذه المرة سوف لا تـدعك تخـطو خطوات عجلى ودون روية). فأجابه كاردو قائلا: (رغم ان هذا الانزلاق والتيه قد اضاعت علي الكثير من قوتي ووقتي، ولكنها علمتني ان لا اخطو خطوة قبل ان أفكر في موضع قدمي).

كانت القافلة مازالت تنتظر اذ لم تخط خطوة بدون مراد. وقف كاردو في الصف مع القافلة، فخطوا اولى خطواتهم الجديدة على الهضبة، السحب البيضاء دنت منهم نثار رذاذ الثلج كان كالفراشات تلتصق بأجسـامهم، اتخذ مـراد الطريق الجديـد مسلكا، ولم يكن اهل القرية حتى ذلك الحين قد سلكوه، كانوا يعتقدون ان ذاك كان هو الطريق الوحيد القريب، او انهم كانوا معتادين ان يتحزموا للموت دون ان يعرفوا الى اين يذهبون. لم يستطع الضباب ان يضيع عليهم الطريق. تسلقوا صفحة الجبل فوصلوا بسرعة الى الجانب الآخر، بانت لهم القـرية، وكـانت المنطقة تبدو لهم كملاك ازرق، قمة جبل «كلاوقوت» كـانت من خلفهم تبدو وكأنهـا رأس غزال ينـظر اليهم سرت الفـرحة في القافلة، لأول مرة اعتبروا انفسهم اعظم من آبائهم وأجدادهم.

اوقف مراد القافلة وقال لهم:

الآن صرتم تعرفون الطريق جيدا، سوف لا تخطئوه مرة أخرى، هناك من ينتظرني في منطقة اخرى، لهذا سوف اترككم، عاد ادراجه من حيث جاءت القافلة، كانت القافلة واقفة وعيون من فيها شاخصة نحوه، ابتعـد عنهم شيئا فشيئـا حتى غدا كشبح وضاع في اول منعطف من الجبل..

بعد ذلك صار درب الصـد ما رد اسـطورة حلوة كانت الجدات يقصصنها على الاحفاد في ليالي الشتاء حـول مواقـد النيران لينام وا، وصارت المنطقة تعقد حفلا كبيرا في بداية كانون الثاني من كل عام أحياء لذكرى (مراد) الشهم.

من المجموعة القصصية (هەوار)
«الربيـــع»

1981 --